

عبد الحميد أبو سليمان وإسهاماته في بناء القيم

هيئة التحرير*

تأتي كلمة تحرير هذا العدد من مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، في ظرف افتقدت فيه الأمة جمعاء، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي خاصة، أحد أبرز المفكرين المعاصرين، الذي كانت له بصمات ورؤى عميقة في حركة إصلاح الفكر الإسلامي المعاصر، وتطوير منهجيات التعامل مع الفكر والثقافة الإسلامية، وهو الدكتور عبد الحميد أبو سليمان؛ الرئيس السابق للمعهد العالمي للفكر الإسلامي وأحد مؤسسيه، رحمه الله.

ولعلنا نغتنم موضوع العدد الخاص حول القيم في التعليم الجامعي، لنبرز بعض جهود المرحوم الدكتور عبد الحميد وإسهاماته الفكرية والإدارية والإبداعية في الكشف عن أهمية القيم في بناء الشخصية الإسلامية المعاصرة.

كان الدكتور عبد الحميد واعياً بأهمية القيم في البناء، وبأن المشروع الفكري الذي يحاول صوغه وتطويره متصل اتصالاً مباشراً بموضوع القيم. فمشروع إسلامية المعرفة مشروع قيمي، وتحتل فيه القيم مكاناً بارزاً؛ ذلك لأنها الضلع الثالث من أضلاع الفلسفة والرؤية الكلية: المعرفة والوجود والقيم (الأخلاق). ففي مقالته الموسومة بـ "أيها التربويون: الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، ثم التربية.. والتربية.. والتربية العملية" ركّز أبو سليمان على أهمية الخلفية الفكرية والرؤية الكلية في تأسيس عملنا التربوي، وغرس القيم في النفوس. وينطلق الدكتور عبد الحميد من تصوّره للمعرفة بالربط المحكم بين المعرفة والأخلاق والقيم؛ إذ إن تصوّره للمعرفة قائم على وحدة المعرفة، ووحدة

* هيئة التحرير (2021). كلمة التحرير. مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر"، مجلد 27 العدد 102، 5-12.

المعرفة معنيّة بترجمة مبادئ التوحيد في المجال المعرفي. وهذا يعني أن مصدر المعرفة كامن في الوحي والعالم، وبينهما تكامل، وأنّ الغاية من المعرفة هي ربط المعرفة بالأخلاق والقيم.

والمشروع الفكري للدكتور عبد الحميد ومدرسة المعهد العالمي للفكر الإسلامي يسعى إلى تخلص الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي مما علق بهما من أوهام تتعلق بحيادية العلوم والمعارف الغربية؛ إذ هي علوم ومعارف مُشَبَّعة بقيم وفلسفات غربية لا تتسق والبناء المعرفي الإسلامي، مما يتطلب معاييرها ومقاربتها ضمن المرجعية الإسلامية التي تعني في جوهرها سلامة التوجّه والغاية والفلسفة ضمن الرؤية الكلية القرآنية التوحيدية وقيمها وغاياتها. وقد تفحص الدكتور أبو سليمان الفروقات الجوهرية بين القيم الإسلامية والقيم الغربية؛ ففي مقالته المعنونة بـ "الإنسان بين شريعتين: رؤية قرآنية لمعرفة الذات ومعرفة الآخر" رأى أن القيم في الفكر الإسلامي وفي الثقافة الإسلامية تختلف عن القيم في الفكر والثقافة الغربية، وأن المجتمعات الغربية تعيش أزمة قيم. وأن الحياة الإنسانية صراع بين شريعة النور المتمثلة في الروح والمبادئ والمعاني والقيم من ناحية، وشريعة الغاب المتمثلة في المادة والهوى والشهوات من ناحية أخرى، حيث يلتقي التوجّهان في ذات الإنسان وكيونته -خلال حياته الدنيوية- لقاءً فريداً، وينتهي هذا اللقاء إما إلى صفاء ونقاء وجنة وخلود أبدي في النعيم، وإما إلى ظلم وباطل وفساد وإحباط وخسران وعذاب وجحيم وشقاء مقيم.

وشريعة الغاب هي شريعة الطين، وشريعة الافتراس، وشريعة الظلم، وشريعة العنصرية، وشريعة الاعتداء. أما شريعة النور كما جاءت بها الرسائل السماوية غير المحرّفة فهي شريعة الحق، وشريعة العدل، وشريعة المسؤولية، وشريعة الإخاء والتراحم والتكافل، وشريعة التقوى وحفظ الأرواح، وأداء الأمانات وإنصاف المظلوم، وعدم الإسراف والفساد، دون أي اعتبار ذاتي أو قومي أو عنصري، والقوة في هذه الشريعة للحق على عكس مقولة شريعة الغاب التي تجعل الحقّ للقوة، ولا مجال في علاقات الشعوب في شريعة الغاب لمقولات الحقّ والعدل لذاتها؛ ولكن بترتيب الحقوق، أو على الأصح المكاسب، بهدف التغالب وحلول الصراعات السياسية التي تقوم على قهر غلبة القوة. وعند حديثه عن الفروقات الجوهرية بين النظام السياسي العلماني الديمقراطي والنظام السياسي

الإسلامي الشوري، نراه يركز على المنطلقات القيمة والفلسفية لكلا النظامين؛ ففلسفة النظام العلماني تقوم على فكر مادي يجعل الإرادة الإنسانية معياراً للحق والصواب والخير، بما يجعل الحقيقة قضية ذاتية إنسانية، فهو نظام يقوم على التوافق بين إرادات ذاتية. وتولدت عن ممارسات ذلك النظام - وفق فلسفته- إشكالات؛ أبرزها أن الحرية صارت تعني الفوضى الاجتماعية الأخلاقية، فانهارت القيم والمبادئ والقيود الأخلاقية، وسادت الشهوات والأهواء الذاتية، وعصف ذلك بالدور التربوي للأسرة بوصفها محضناً لتربية الأجيال وسد حاجاتهم الروحية والنفسية والعاطفية والمادية. أما نظام الشورى الإسلامي فهو يقوم على مقاصد القرآن، ومع أنه يلتزم خيار الأغلبية فإنه ينطلق من الوعي بأن الحق حقيقة موضوعية غير ذاتية، وأن الحقيقة الكونية الكلية ليست في متناول البشر، وأن الإنسان محتاج إلى الرؤية الكونية الكلية، وتلك الرؤية رؤية قيم ومبادئ يلزم غرسها في وجدان المسلم، وهي متناغمة مع الفطرة الإنسانية، يرتوي بها العقل والروح والوجدان، وتمثل إطاراً ثابتاً لحياة إنسانية روحية أخلاقية إيمانية خيرة.

حاول الدكتور أبو سليمان تشخيص الأزمة القيمة التي يمر بها الفكر الإسلامي، وحثَّ على التعامل الجاد مع أزمات الأمة الثلاث: أزمة العقل والمنهج، وأزمة الفكر والثقافة، وأزمة الوجدان والتربية. ودعا إلى محاولة تلمس الأسباب التي حالت دون تمثُّل الأمة لقيمها وغايات دينها الخيرة. وتبين له أن الأمة عاشت - وما زالت - تشوّهات أثرت في بنائها المعرفي والوجداني؛ ولعل أهمها: تشوّه الرؤية الكونية الإسلامية التي جاءت نتيجة عزلة العلماء، وتركيزهم على تقديم رؤية فردية تتعلق بالشؤون الشخصية لا جماعية تتعلق بالشؤون العامة، وتكرّس اعتقاداً غير صحيح بأن الثواب على العبادات، أما المعاملات فهي شأن دنيوي لا ثواب عليه؛ وثمة تشوّه مائل في العزلة بين القيادة العلمية (الصفوة العلمية وأهل العلم) والقيادة السياسية. فأصبح العلماء معزولين في حلقات الذكر وأداء الشعائر ضمن ما يُسمّيه أبو سليمان بالرؤية الانعزالية المدرسية، وأدّى هذا العزل إلى انشغال أهل العلم بأحادية المعرفة والتلقين والإحاطة اللغوية والنصية دون الوعي بالمتغيرات الاجتماعية، وبأساليب تربوية بعيدة عن صوغ شخصية المسلم. ونتيجة لعزلة القيادة الفكرية

الإسلامية ومحدودية اهتماماتها وممارساتها الاجتماعية والسياسية، لم تتطور الأصول الفقهية الفرعية بما يجعلها أدوات للنظر العلمي المنهجي في أحوال النفس والكائنات والتنظيمات الاجتماعية؛ فلم تنشأ لدينا علوم الفطرة الإنسانية الاجتماعية، ويفسر ذلك وفرة الدراسات الفقهية النصوصية، وندرة الدراسات الفكرية المتعلقة بمسيرة حياة الأمة ومؤسساتها العامة والبدائل الحضارية، وغياب البرنامج العلمي التربوي والثقافي المتكامل؛ وتشوّه معرفي خاص بتأثيرات الفكر التصوري اليوناني، مما أسهم في التقليد والمحاكاة؛ وتشوّه مائل في استيراد النظريات الغربية دون وعي بالخصوصية الإسلامية، ولا تأخذ بالحسبان قيم الأمة وطبيعتها وشخصيتها ومنطلقاتها القائمة على التوحيد والاستخلاف، وغائية الوجود وأخلاقياته وتكامل أبعاده المادية والروحية.

ولعل الحلّ الأمثل لمعالجة هذه الأزمات والتشوّهات كان في الرؤية التوحيدية الكونية القرآنية وأدائها المنهجية الماثلة في التكامل المعرفي؛ إذ مثلّ التكامل المعرفي إطاراً منهجياً للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، وهو جزء من تكوينه الذاتي وفلسفته في التعامل مع علوم الشريعة والعلوم الاجتماعية والإنسانية خاصة؛ ومن اليسير أن نتلمّس هذا الإطار في كل أعماله بوصفه مرجعية منهجية علمية شمولية تحليلية منضبطة. فالتكامل المعرفي يؤمن إيماناً مطلقاً بوحدة المعرفة لا أحاديّتها، ويقمّ وصلاً بين مصادر المعرفة (الوحي والعالم) وأدواتها (العقل والحس)؛ إذ تتيح للعلوم الاجتماعية والإنسانية الاتساق مع بنية المجتمعات الإسلامية من خلال ما توفره علوم الشريعة من رؤية كلية توحيدية، وإشباع هذه العلوم بالرؤية الكلية الإسلامية؛ وفيها قدرة على الإمام بقيم المجتمع وتقاليده والرؤية الكلية القرآنية، والإمام بالحكمة التي توفرها المعارف الحديثة، بحيث تتكامل مبادئ الأخلاق والسلوك مع المعرفة المعاصرة.

ورأى الدكتور أبو سليمان أننا لا ندرك حقيقة التوجيهات والهدي الإلهي دون معرفة الطوائف والوقائع في الخلق والكون، وأننا لا نستطيع الإسهام في بناء الإنسانية إلا إذا اهتمت بقيم الشريعة ومقاصدها ورؤيتها الكلية. وهو يعطي وزناً للمادة كما للروح والعقل؛ إذ ينبغي للمسلم أن يكون أكثر جدية في تعامله مع المادة والأخذ بأسبابها؛ لتحقيق قيم الخير وغاياته، وتجسيدها في رحلة الحياة، لأنه دون المادة لا يمكن تحقيق تلك الغايات، ولا تجسيد تلك المقاصد والقيم. والمادة حين تجسّد

معاني الخير والحق والجمال وشريعة النور، فإنها تسمو وتصبح خيراً ونعمة ورقياً حسناً، أما إذا أصبحت غاية في حد ذاتها، وأصبحت تجسيدا لغايات شريعة الغاب والظلم والعدوان والعنصرية والشرك والإلحاد، فإنها تكون عند ذلك خداعاً وسراباً وهوى وشهوات.

إنَّ القيم عند الدكتور عبد الحميد تُبنى بناءً، لا سبياً في مرحلة الطفولة التي ركّز عليها كثيراً؛ لأنَّ التقليد والمحاكاة وإغراق الطفل بالمعلومات التي لا تناسبه ولا تتسق مع بنائه النفسي، ستسهم في أزمة وجدانية ونفسية له. ومن هنا ركّز الدكتور عبد الحميد على بناء الطفل وجدانياً وقيماً؛ فهو يرى أن من أخطر ما وقعت فيه الأمة في عصور تأخرها سوء عرضها للحدود الإسلامية، وغياب خطاب تربوي للأطفال يربيه على حب الله وحب القرآن، وليس على الخوف؛ فالفكر الإسلامي في تلك العصور لم يدرك الأبعاد التربوية للطفل، وتجاوز الطفولة على نحو حال دون فهم طبيعتها وتطورها، ومعرفة دورها في التغيير، وحرمتها من الوعي بالنهج النبوي في تربية الطفل والحرص على حقوقه بخطاب له خصوصيته ودلالته. وأدرك الدكتور عبد الحميد أن الجانب الوجداني الروحي النفسي في مرحلة الطفولة أهم وأشمل من الجانب المعرفي، والجانب المعرفي وسيلة للبناء النفسي الوجداني، لذلك ينبغي انتخاب القيم المناسبة لهذه المرحلة العمرية المهمة؛ إذ إن بناء القيم متعلق بالزمن بصورة كبيرة، فكل مرحلة لها بناؤها الوجداني الخاص بها، "ولذلك يجب أن يكون الوجداني النفسي هو الأساس الذي يُبنى عليه نوع المعرفي وأسلوب تعليمه، حتى في مجال تعليم العقيدة والقيم والأخلاق."

يتكئ خطاب الدكتور أبو سليمان على جملة من القيم العليا من أهمها: التوحيد والاستخلاف والعدل، والاعتدال، والحرية، والشورى، والمسؤولية، والغائية، والأخلاقية، والشمولية العلمية السننية، والعالمية، والسلام، والإصلاح، والعمران، والجمال. وثمة قيم مركزية في بناء الأفراد والمجتمعات والأمم؛ وقد جعلها الدكتور عبد الحميد في إطارين: إطار التعامل مع الذات، وإطار التعامل مع الآخر. ففي بناء الذات نلمح تركيزاً كبيراً على قيمة وحدة الأمة. وهذا ما نجده في مقاله الموسومة بـ "استفتاء علماء الأمة بشأن مواقيت الصلاة وصوم رمضان"؛ إذ يرى أن الصلاة حلقة وصل لا فصل، ويعطي حلولاً لهدف منها نظرة مقاصدية تعمق روح الوحدة بين أبناء الأمة،

ويساوي بين جميع أفرادها على اختلاف مناطقهم، لتظل الصلاة كتاباً موقوتاً. وظهر هذا التركيز على هذه القيمة من خلال مقاله المعنونة بـ "استفتاء في قضية تخصص بتجديد فهم الدين: ما هي أيام الحج في العالم المعاصر؟". ونلمح التركيز على قيمة حُمة الصف ووحدة المجتمع في كتابه "العنف وإدارة الصراع". وهو يرى بأن التمزق والصراع من الأمراض الاجتماعية التي تتعلق بالجانب الجمعي في الشخصية الإنسانية، لذلك ينبغي أن نركز في بنائنا القيمي على الوحدة والتضامن والتعاون، حتى تستقيم هذه الشخصية وتتوازن.

ويركز أبو سليمان في عدد من مقالاته وكتبه على قيمة الشورى بوصفها قيمة مركزية عليا؛ فعندما يطرح قضية ما فإنه يُتبعها بقوله: "إن من المطلوب في واقع العصر أن تطرح على الساحة الفكرية، وبكل الجراءة والأمانة الفكرية أمام العلماء والمفكرين وجمهور الأمة جميع الاجتهادات والرؤى، ليتداولوها، ويتدبروها، فأمر الأمة المسلمة شورى بينهم." وهو عندما يعرض الأمر على علماء الأمة، فإنه يسعى إلى تثبيت قيمة الشورى. ويرى أن استقرار المجتمع المسلم ونجاح حركات الإصلاح لن يترسخ إلا من خلال عقلية مجتمع الشورى ونظامه، ولهذا ينبغي أن ندرك أن المنهج الشوري في جوهره أمر مبدئي ومفاهيمي وتربوي، يجب أن يترسخ في ضمير الأمة على مختلف مستويات التربية والتعليم والتعامل فيها، وليس قضية هيكلية تنظيمية فحسب.

وفي إطار الآخر نلمح حديثاً معرفياً عن قيمة الثقافة الواعية والحوار مع الآخر، وقد ركّز في هذا الإطار على الترجمة وإنشاء التخصصات المتعلقة بالفكر الغربي. وينطلق الدكتور أبو سليمان في إعلاء قيمة الثقافة والحوار من منهجية التكامل المعرفي التي ترى في الخبرة المعاصرة شرطاً فاعلاً في تطوير العلوم الإنسانية والاجتماعية في إطار المقاصد الشرعية للهدى الإلهي والنبوي.

حاول الدكتور عبد الحميد أن ينقل موضوع القيم من إطاره النظري المجرد إلى الفعل القيمي وإلى حيز التطبيق. وقد تمثّل هذا التطبيق في نطاقين مهمين: النطاق الإبداعي، والنطاق الجامعي الأكاديمي. ففي النطاق الإبداعي تبرز القيم في قصصه الموجهة إلى الأطفال مثل: جزيرة البنائين، وكنوز جزيرة البنائين، والقرد الذكي يعرف الحساب. وقد بثّ في هذه القصص عدداً كبيراً من القيم التي تبني شخصية

الطفل المسلم المعاصر، متكثراً في صوغه أفكارَ القصص والحكايات على معارف وعلوم حديثة لا سيما العلوم السلوكية: علم النفس والاجتماع والإنسان، وربطها بها في مخزونه العلمي والثقافي الإسلامي.

ولعل التجلّي الأكبر للدكتور عبد الحميد في موضوع القيم كان في الإطار الجامعي الأكاديمي، ودوره في البناء القيمي للشخصية الجامعية؛ إذ نلمح مدرسة إسلامية المعرفة والتكامل المعرفي ورؤية المعهد واضحة للعيان، لا سيما في برامج الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا ومقرراتها الدراسية ونظامها، وهي الجامعة التي تولّى إدارتها الدكتور عبد الحميد عشرة أعوام؛ فالجامعة تنطلق من مبدأ وحدة المعرفة بالربط بين الهدي الإلهي والطبائع والوقائع، لذلك على الطالب أن يعرف العلوم مضافاً إليها مفاهيمه وقيمه الإسلامية، ليقوم الطالب والأستاذ بعملية نظر وتفكير مستمر لتوليد الفكر والمعارف الإسلامية التي تمثل المقاصد والقيم وتُتمّي الطاقات وتواجه التحديات. وتلمس هذه القيم في التجليات الآتية:

- الحرم الجامعي

لقد بُني الحرم الجامعي بصورة تخدم فكرة التكامل المعرفي، وتحقق القيم الإسلامية ومقاصد الشريعة، وعلى الربط المتين بين توجيهات الوحي وطبائع الإنسان وحاجاته. ومن أبرز الأمثلة على هذا، التخطيط لسكن الطلاب في إطار القيم الإسلامية؛ فالدراسة النفسية أدت إلى اكتشاف رؤية جديدة لمقاصد تشريع العقوبات في الإسلام. وبناء الجامعة ينحاز إلى قيمة الجمال في العمارة الإسلامية ضمن رؤية الوحدة والتنوع: الوحدة في التعبير عن مكنونات الجمالية الإسلامية التي أسّسها التوحيد، والتنوع في مناسبة البناء للثقافة المالوية. ويعبّر الدكتور أبو سليمان عن هذه الجمالية بقوله: "هو تعبير عن قيم الإسلام في جمال البناء وكفاءة الأداء"، مستلهماً مقاصد الفكر الإسلامي في تخطيط المدينة من حيث موقع المسجد والمسكن إلخ. مما يجعل البناء بناءً قيمياً واضحاً.

- المساقات الجامعية

في كل مساق من المساقات التي أنشأها الدكتور عبد الحميد في الجامعة كانت هناك قيمة مقصودة؛ فنجد مثلاً قيمة التعارف والحوار كما هو في مادة الدراسات الغربية، وقيمة الانتباه إلى الذات من خلال اللغة العربية، والمثاقفة مع الحضارة المعاصرة من خلال اللغة الإنجليزية.

- برامج متطلبات الجامعة

جاءت برامج متطلبات الجامعة في خطة الجامعة، لكي تُعنى بالأسس العقدية والأخلاقية والثقافية العامة للطالب؛ بهدف ترقية ثقافته ومعرفته، وتنميته روحياً وقيماً وثقافياً ودينياً وتربوياً، والإسهام في إعداده للقيام بدوره الاجتماعي والقيادي. وقد استحدث الدكتور عبد الحميد مقررًا جامعياً عن "الأسرة والأبوة"، لبناء القيم في نفوس الفتيات والشباب؛ ما يجعلهم أهلاً لأداء دورهم الأسري من خلال إدراك الوسائل التربوية الناجعة.

- بناء شخصية الطالب اللغوية

وعنى الدكتور عبد الحميد أن اللغة قيمة، وهي تعبير عن هوية الطالب المسلم، فبالإضافة إلى اللغة الأم عند الطلبة، وما يمكن أن يحققه من إبداع في التفكير وحلّ المشكلات، وانطلاقاً من منهجية التكامل المعرفي، سعى الدكتور عبد الحميد إلى تثبيت هوية الأمة من خلال تدريس علوم الشريعة باللغة العربية القادرة على الكشف عن مقاصد الشرع، والتواصل الوجداني بين أبناء الأمة، وتدرّس العلوم الاجتماعية والإنسانية باللغة الإنجليزية؛ إذ تمثل لغة المعرفة المعاصرة، وتيسير سبل الاطلاع المباشر على النتائج المعرفي للأمم الأخرى. وقد ركز الدكتور عبد الحميد على الترجمة بوصفها قنطرة مهمة في التأسيس للمثاقفة الواعية.

ويأتي هذا العدد الخاص بالقيم في التعليم الجامعي المعاصر متسقاً مع منهج أبو سليمان في التخطيط والتأسيس العلمي للمشاريع البحثية؛ إذ جاءت بحوث هذا العدد بعد مسيرة حافلة من اللقاءات العلمية والحلقات النقاشية التي طوّرت أفكار هذه البحوث، وقامت إدارة التحرير بضبطها لتنسجم مع متطلبات النشر في المنصات العالمية.

نسأل الله سبحانه أن يرحم الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، ويجزيه خير الجزاء على ما قدمه من جهود فكرية وعملية، في سبيل الإصلاح الإسلامي القائم على سلامة الرؤية وصحيح المعرفة وفاعلية القيم، لتُمثل سيرته الإصلاحية نموذجاً في الرُّشد الحضاري، وفي النهوض المنشود.